سيمياء الخطاب الروائي

قراءة في "الولي الطاهر يــعود إلى مقامه الزكي" للطاهر وطار

في البداية:

أدى التطور في عمليات "فهم النص, تطورا مماثلا في طرق تنظيميه, و إمكانية أن يصنع من نفسه عالما خاصا, تتفاعل فيه بنيات مختلفة, يجمعها النص, هذا الأخير الذي يحاول القارئ ملامسة سحره, و مقاربة خياله والدخول إلى عالمه، والبداية في هذه المحاولة يمثلها عالم و فضاء البداية في الــنص, أي ما يصل النصوص بعضها البعض من أجل التعرف على مختلف جزيئاتها و تفاصيلها, وهو أهــم هذه الجزيئات و العلاقات في البناء النصي, يمثل بعمق ودقة علاقات التفاعل وتعاليه بين دفتي غلاف نص ما، سمي: "المناص" أو "النصوص المصاحبة"، فما كان لمثل هذه النصوص أن تثير الاهتمــام لولا توسيع مفهوم النص، فآثرنا إثارتها في سيبل تعميق "فهم النص الروائي و تأويله"، متخذين رواية الــولي الطــاهر يعــود إلــى مقامــه الزكــي" للطــاهر وطــار-أنموذجــا-[1] ؟

1- عتبات النص..؟:

هي ما يسمى النص الموازي أو النص المصاحب (para Texte)، و قدمت عدة مصطلحات كترجمة لهذا مصطلح؛ إذ يترجمه: محمد بنيس, بالنص الموازي، ومختار حسني, بالتوازي النصــي و محمــد الهادي المطوي, بموازي النص، و عبد العزيز شبل, بالنص ألمحــاذ، وســعيد يقطــين بالمنــاص، وترجمات عديدة: المناصصة- النص المؤطر-النص المصاحب-العتبات..إلخ. وهذا يعود لتعدد دلالات الجزء الأول من المصطلح (para) , فنجده في اليونانية و اللاتينية صفة حاملة لعدة معــاني: معنــى **الشبيه و المماثل و المساوي**(pariel,égal) لها علاقة بالأبعاد الكمية و القيمة, بحيث نجــد الكلمــة اللاتينية (توازي) الكلمة اليونانية.و معنى **المشابهة و المجانسة و الملائمة**, و كذلك معنى **الظهور و الوضوح و المشاكلة**(corvéable, compagnon, apparie, semblable) .و بمعنى المــوازي و **المساوي للارتفاع و القوة**.و بمعنى **الزوج و القرين** و الوزن بين مقدارين, و العدل و المساواة بين شخصين.بمعنى تحاذي الجمل بين بعضها البعض(2)، وكلها معان انعكست على المصطلح والمفهوم.

و المناص "بنية نصية متضمنة في النص"(3)، فضاء يشمل كل ما له علاقة بالنص مــن : عنــاوين رئيسية و عناوين فرعية، و تداخل العناوين و مقدمات و ذيول و صور، و التنبيه و التمهيد و التقديم و كلمات الناشر، والتعليقات الخارجية...إلخ، و قد قدمه لنا جيرارد جنيــت (Gérard Genette) فــي كتابه"عتبات "(seuils) عام 1987 ، الذي أوضح فيه اهتماماته الزائدة بهذا النمط بغية توسيعه ليشمل كل النصوص الموازية للنص الأدبي؛ باعتبار أن لكل نص أدبي نصا موازيا، و النص الموازي عنــد جنيت هو " ما يصنع به النص من نفسه كتابا و يقترح ذاته بهذه الصفة على قرائه، و على الجمهــور عموما ، أي ما يحيط بالكتاب من سياج أولي ، و عتبات بصرية و لغوية"[4]. و النص الموازي نــوع

من النظير النصي، الذي يمثل التعالي النصي بالمعنى العام [5]. إن المناص يمثل العتبات أو البوابات أو المداخل، التي تجعل المتلقي-عبر هذا النوع من النظير النصي - يمسك بالخطوط الأساسية التي تمكنه من قراءة النص وتأويله؛ لأنها تربط علاقة جدلية مع النص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

و هي العتبات،نفسها، التي تربط النص الأدبي بكل ما يحيط به من النصوص التي سبق ذكرها بالإضافة إلى النصوص الغائبة عن دائرة الضوء ، و غير المعلن عنها مثل : المسودات ، و المشاريع غير المكتملة للكاتب مثل المذكرات و خطط أعمال أدبية لم تنجز بعد ، إنها نصوص تعقد صلات ود مع النص ، فتعلن سره و تكشف عنه ، لأنها المدخل الطبيعي إليه ، و مرشدة القارئ إلى طريق التواصل معه؛ إذ تمكنه من الانفتاح على تركيب النص و أبعاده الدلالية من جهة ، كما تمكنه من تحديد العناصر المؤطرة لبنائه(معماريته)، و بعض طرائق تنظيمه وتحققه التخيلي من جهة أخرى، أي أنها تحمل في طياتها وظيفة تأليفية تحاول كشف إستراتيجية الكتابة [6] ؛ باعتبارها العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالا يجعلها تتداخل معه إلى حد تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالا يسمح للداخل النصي،كبنية وبناء، أن يشتغل وينتج دلا ليته؛ ف" الكاتب أو المؤلف و هو ((يكتب)) كلماته أو ((يؤلف)) بينهما ((يبني)) عوالم نصه وفق كيفية ما: محاكيا بناءات موجودة, أو مبدعا, في نطاق الممكن النوعي, طرائق جديدة في ((تنظيم)) بياناته النصية التي يتشكل منها النص الذي ((يبدع)) وفق رؤيته لعمله الإبداعي أو تبعا لضرورات تشكيل المعنى"(7) .بناء عليه، ينقسم المناص إلي:

1. المناص ألنشري/ الافتتاحي (مناص الناشر) (Editorial para texte):

وهي كل إنتاج في مناص التي تعود مسؤوليتها للناشر المنخرط في صناعة الكتاب و طباعته, و هي أقل تحديدا عند "جينيت" إذ تتمثل في (الغلاف, الجلاد, كلمة الناشر, الإشهار, الحجم, السلسلة....), حيث تقع مسؤولية هذا المناص عل عاتق الناشر و معاونيه(كتاب دار النشر, مدراء السلاسل, الملحقين الصحفيين...), و كل هذه المنطقة تعرف بالمناص ألنشري/الافتتاحي, الذي يضم تحته قسمين هما:

أ- **النص المحيط ألنشري**: الغرف-صفحة العنوان-الجلادة(jaquettes)-كلمة الناشر..

ب- **النص الفوقي ألنشري**:الإشهار-قائمة المنشورات(catalogues)-الملحق الصحفي لدار النشر(Presse d'édication).

2. **المناص ألتأليفي(مناص المؤلف)**:(para texte auctorail) :

يمثل كل المصاحبات الخطابية، التي تعود مسؤوليتها بالأساس إلى الكاتب/ المؤلف؛ حيث ينخرط فيها كل من(اسم الكاتب, العنوان,العنوان الفرعي, الإهداء, الاستهلال..)، و ينقسم هو الآخر إلى قسمين مهمين هما:

أ-النص المحيط التأليفي: اسم الكاتب, العنوان, العنوان الفرعي, الاستهلال, المقدمة , الإهداء, التصدير, الملاحظات, الحواشي, الهوامش.

ب-*النص الفوقي التـــأليفي:* ويتفرع إلى:

- ☑ **العـــــام:** اللقاءات (الصحفية و الإذاعية و التلفزيونيـــة) الحـــوارات, المناقشـــات, الندوات, المؤتمرات, القراءات النقدية.
- ☑ **الخـــاص:** المراسلات(العامة والخاصة), المسارات, المذكرات الحميمـــة, الـــنص القبلي, التعليقات الذاتية.

وانطلاقا من كل ما سبق، نحاول دخول معمار رواية " الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي " للطاهر وطار و عالمها الخاص، أي عبر هذه النصوص المصاحبة أو العتبات، التي تميز بها فضاء الرواية كمفاتيح رئيسية.

1 – **الغـــــــــــلاف :** يعرف "جينيت" تصدير الكتاب/ العمل:" كاقتباس يتموضع (ينقش) عامة على رأس الكتاب أو في جزء منه..و يعد التصدير كمقدمة للنص و الكتاب عامة, ذو قيمـــة تداوليـــة, واضعة لطريقة تسنن بها القراءة الواقعة فيقلب الحوار الناشئ بين النص و الحكمة التي رجـــع إليهـــا الكاتب, كما يمكن للتصدير أيضا أن يكون أيقونا كالتصدير بالرسوم و النقوش"[8].

و الغلاف أول ما نقف عنده ، و هو الشيء الذي يلفت انتباهنا بمجرد حملنا ورؤيتنا للرواية، لأنه العتبة الأولى من عتبات النص الهامة ، تدخلنا إشارته إلى اكتشاف علاقات النص بغيره من النصوص [9] المصاحبة له: صورة-ألوان-تجنيس-موقع اسم المؤلف-دار النشر-مستوى الخط..؛ إذ تعتبر جميعها أيقونا علاماتيا يوحي بكثير من الدلالات و الإيحاءات، وتعمل بشكل متكامل متناغم، لتشكيل لوحة فنية جمالية تعرض نفسها على قارئ مبدع، وتمارس عليه سلطتها في الإغراء والإغواء، ليتسنى لها إثارة التشويش على هذا التلقي، أو تكون المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص(10)؛ فالغلاف -أحد المناصصات البارزة-" فضاء مكاني؛ لأنه لا يتشكل إلا عبر المساحة؛ مساحة الكتاب وأبعاده، غير أنه مكان محدود ولا علاقة له بالمكان،الذي يتحرك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرك-على الأصح- عين القارئ،إنه بكل بساطة فضاء الكتابة الروائية باعتبارها طباعة "(11).

و غلاف هذه الرواية يتكون من أربع وحدات غرافيكية ، تحمل عدة إشارات دالة ، الأولى هي الصورة ، و الوحدة الثانية هي اللون الذي ميز الغلاف ، و الثالثة هي التجنيس ، أما الأخيرة فهي العنوان الذي يعد وحدة كبرى تستقل بذاتها .

أ- **الصـــــــورة:**

يعتبر ماتز (Christian Metz) الرسالة البصرية مثل الكلمات، وكل الأشياء الأخرى، لا يمكن أن تنفلت من تورطها في لعبة المعنى[12]؛ فالصورة علامة أيقونية' خطاب مشكل كمتتالية غير قابلة للتقطيع، لأنها المتتالية التي تسعى إلى تحريك الدواخل والانفعالات للرائي (القارئ) وهذا ما يبرز

جمالية المرئي، الذي تتضافر عناصره من أجل تأكيد المكتوب.

إن اللغة البصرية، التي يتم عبرها توليد مجمل الدلالات داخل الصورة، هي لغة بالغة التركيب، كما أنها لغة تعمل على نقل الأفكار والدلالات من لغة إلى لغة أخرى؛ لأنها تحكي الفكرة بلغة الشكل- الخط،- اللون- الظل- الملامح- والاتساق البصري، والتنوع، لتضعها في سلم القراءة، وتنتهي بها إلى الفهم والإدراك، عبر تحريك وإعمال العقل ومهاراته.

والصورة –هنا–هي لوحة من لوحات الفنان " عبو"، و بربط الصورة مع العنوان ، و بتأويل بسيط لهذه الصورة نجد أن من يركب الحيوان:حمار أم أتان، هو الولي الطاهر و هو غير واضح الملامح ، غير معروف الجنس إنه بخصر أنثى، وبكتف عريض، و كأن الفنان بمحي ملامح الوجه عنه، قد محا عنه الشرف الرفيع و القدر الجليل ، حتى الأتان التي يركبها مشرومة الأذنين ، بلا عينين، إذن ــ هي صورة العودة التي تتمظهر تمظهرا ضبابيا ، تجعل القراءة عاجزة عن الإجابة بشأن هذه الذات الممارسة لفعل العودة، وفعل العودة في حد ذاته؛ وكأن الروائي قد استوحي فكرة الرواية من هذه الصورة،لما تحمل من عمق دلالات و معاني وقيم ومشاعر وأحاسيس، اعتملت في دواخل فنان ذو فردا نية متميزة، وفكر نقدي متقد، لتكون الرواية؛ فالصورة هي "الشكل الذي تهب اللغة نفسها له، بل إنها رمز فضائية اللغة الأديبة في علاقتها مع المعنى"(13).

ب- **اللـــــــــون** : لقد اتخذ اللون وظيفة تكنولوجية عندما حل محل اللغة، ومحل الكتابة و لهذا وجب ربط اللون بنفسية المتحدث و نفسية المتلقي ، ثم بالوسط الاجتماعي والبيئة المحيطة بالفنان ، فتساهم دلالات اللون في نقل الدلالات الخفية و الأبعاد المستترة في النفس البشرية [14] ؛ باعتبار الصورة واللون جزء منها لغة عالمية تفهمها كل الشعوب. و غلاف الرواية يتفجر دما ، و كما هو معروف فاللون الأحمر يحمل سمة القتل المصبوغ بدم الشعوب، والموت والجحيم، فكل شيء أصبح دمويا في هذا العالم ، و في المقابل تبقى الجاحظية هذه الجمعية التي يرأسها الروائي الطاهر وطار –مديرها المسؤول- و التي ترمز للتراث و العقل و المنطق و الفكاهة و الطرافة و الخيال و الإبداع و الفكر ، خضراء تناضل من أجل عروبة الجزائر ، و عروبة الفكر و الهوية و الفن و الأرض و الخطوات [15] .

و تحتل وسط الصورة بؤرة نورانية ، نعجز عن تفسيرها ، هل هي حنين إلى الاشتراكية الأصيلة ، هذه الحركة التي تكاد تكون المنقذ الوحيد للجزائر من بحر الدم، الذي ألقيت فيه كما فعلت سابقا ؟ أم أن وطار يريد أن يجعل من نصه أو شهاداته نورانية إبداعية، تنفتح على مشهد ظلامي دموي و

واقعي عبر قراءة صوفية لهذا الوضع الراهن الذي تعيشه الجزائر. وكما هو معروف الأبيـــــض دلالة على الثراء و التحضر و الرقي و التهذب والصفاء والسلام و الإشراق والنقاء والبراءة.

أما الاحتمال الثالث فهو الذي نرتكز فيه على التوحد بين بلارة و الأتان؛ فبلارة ترمز في ناحية من نواحيها إلى الحضارة ، إنها نورانية إذا تحكمنا فيها و سيرناها كما نريد ، لا كما تريد هي، و إلا فقدنا هويتنها، و تهنا تيه بني إسرائيل ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى و قد يكون احتمالا صائبا ، أن بلارة هي الجزائر ، و من حيث هي كذلك ، فإن الجزائر بيضاء كالحمامة ، متحضرة في الأعماق ذات بهاء حنون و متدفق و رغم وابل الدم الذي المسلط عليها، تقول لكل من يراها " أرأيت في الحياة الدنيا ، صورة أبهى من صورتي هذه ؟ " [16] . ، هي كالمشكاة في هذا المشهد كله .

و يعد اسم الكاتب من بين العناصر المناصية المهمة, فلا يمكننا تجاهله أو مجاوزته لأنه العلامة الفارقة بين كاتب و آخر, فيه تثبت هوية الكاتب لصاحبه، و يحقق ملكيته الأدبية و الفكرية على عمله دون النظر للاسم إن كان حقيقيا أو مستعارا. ولما كان اسم المؤلف أحد النصوص المصاحبة شد انتباهنا- في الغلاف – اسم المؤلف الذي يعلو الصورة ، و كأن وطار يشير –هنا- إلى حياده فيما يحدث بالجزائر ، فما هو إلا شاهد عيان على هذا المشهد ألظلامي ، يرصد بالملاحظة و يعبر بالأسلوب الذي يراه مناسبا (فني ، رمزي ، سريالي .....)

ج – **التجنيـــــــــس** : يعتبر التجنيس وحدة من الوحدات الجرافيكية، أو مسلكا من بين المسالك الأولى في عملية الولوج في نص ما؛ فهو يساعد القارئ على استحضار أفق انتظاره ، كمـــا يهيئه لتقبل أفق النص ، و إن كان هذا التجنيس يفيد عملية التلقي بتحديده إستراتيجيات آليات التلقي و ربط هذا النص المجنس بالنصوص الأخرى التي من نوعه في ذاكرتنا النصية ، لأننا نتلقى النص من خلال هذا التجنيس ، و نعقد معه عقدا للقراءة ، كما بين ذلك " جيرارد جنيت " وإن تلقـــى أي جـــنس أدبي ــ قصصيا كان أو غير قصصي ــ يتألف من اتفاق معقود بين المؤلف و القارئ ، الذي يـــرتبط بنوعية هذا الجنس على وجه التحديد . فالمؤشر الجنسي(indication générique)-على ذلك- نظام ملحق بالعنوان، "لهذا يعد نظاما رسميا يعبر عن مقصدية كل من الكاتب و الناشر لما يريدان نســبته للنص, في هذه الحالة لا يستطيع القارئ تجاهل أو إهمال هذه النسبة, و إن لم يســتطع تصــديقها أو إقرارها, فهي باقية كموجه قرائي لهذا العمل"(17)

و تجنيس هذا النص تكرر أكثر من مرة؛ الأولى كانت على الغلاف، و الثانية كانت في الصفحة التي تلي الغلاف، و الثالثة كانت في مقدمة النص التي جاءت بقلم المبدع نفسه" إن هذه الرواية، رغم ما فيها من تجريد و من سريالية، هي عمل واقعي يتناول حركة النهضة الإسلامية بكل تجاويفها و بكل اتجاهاتها، و أساليبها أيضا "[18]. و لعل المرة الأخيرة عندما قال:".. لهذا السبب كانت الشخصية الرئيسة في الرواية صوفية تعيش حالات تتجسد في حالة واحدة " (19)؛ و بذلك يكون وطار قد أبعدنا عن الوقوف في حيرة كبيرة تجلب لنا رؤية ضبابية للتلقي ، لأن من أكثر العوامل فاعلية في تحديد

أفق التلقي ، و طبيعة الاستجابة الأولى للنص الفني ، مسألة التجنيس و إستراتيجيات التسمية النوعية التي تجلب إلى عملية التلقي مجموعة من الخبرات النصية يتحقق بعضها و يجهض بعضها الأخر[20] .
إن " الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي " نص قد سيق في النوع أو الجنس الذي يكاد يطغى في عصره ، و يحتل قلوب القراء لما فيه من إغراء، حيث يستدرجنا لدخوله من هذا الموضع المفتوح على مصراعيه ، حتى نستطيع فهمه من جهة ، و التخلص من هذا القلق المصاحب لتلقي مثل هذه النصوص في تاريخ الأدب [21] ،من جهة أخرى؛ لأنها نصوص تفاعلت مع أوضاع العصر فجاءت مرآة لما يجري من أحداث رهيبة في عشرية سوداء كلها فتنة و إضراب و قلق مصيري ، كما أنها متفاعلة مع الاتجاهات الغربية الحديثة في أسلوبها و طريقة تعبيرها و سرد أحداثها .
2 – **العنـــــــــــــــــــوان** : يعد العنوان من بين أهم عناصر المناص (النص الموازي) لهذا فإن تعريفه يطرح بعض الأسئلة و يلح علينا في التحليل، كعنصر مهم , كونه مجموع معقد أحيانا أو مركب/ و هذا التعقيد ليس لطوله أو قصره, و لكن مرده مدى قدرتنا على تحليله و تأويله؛ فيـــرى "جينيت" أن في المستوى العملي للعنوان ، تتجاوز وظيفة المطابقة (identification) بقية الوظائف، باعتبارها أهم الوظائف؛ لأنها تريد أن تطابق بين عناوينها و نصوصها، غير إننا نجد بعض العناوين المراوغة خاصة السريالية منها، التي لا تطابق نصوصها تماما، فتحتاج إلى تأويل و حفر في طبقاتها قصد قراءة و فهم إيحاءاتها و تلميحاتها.ومد صفة موضوعاتي(thématique) للعنوان تعبيـــر عـــن اعتماد العناوين وصف "مضمون" النص.أما العنوان في مستواه التداولي/ النفعـــي، فتبـــرز"الوظيفـــة الاغرائية"، التي لها وزنها في إحداث استيراتيجية العنوان و تأطير النص،فهي المعول عليها كثيـــرا على الرغم من صعوبة القبض عليها, و هي من تغرر بالقارئ المستهل بتنشيطها لقدرة الشراء عنده, و تحريكها لفضول القراءة فيه, و القاعدة المنظمة لهذه الوظيفة قد وضعت منذ قـــرون فـــي مقولـــة "uretère" : "العنوان الجيد هو أحسن سمسار للكتـــاب": (beau titre est le vrai proxène&te d'un livre) ، فيرد "John Barth/جون بارث" على أولئك يلهثون وراء العناوين الرنانة و الطنانـــة دون وعي بجماليتها، و التي تكون في الأغلب بلا معنى "فإن يكون الكتاب أغرى من عنوانه, أحســـن من أن يكون العنوان أغرى من كتابه"(22). و هذا لكي لا نسوق القراء لعماء لا مرئي, و نبقي علـــى ذلك الميثاق الأخلاقي للقراءة.

أ– **العنوان كحقل دلالي رئيس** : يعتبر العنوان في الدرس المعاصر المدخل الرئيس للعمارة النصية ، إنه إضاءة بارعة وغامضة؛ باعتباره سؤالا إشكاليا، يتكفل النص بالإجابة عنه[23] ؛ فالعنوان يعلن عن طبيعة النص ، و من ثمة يعلن على نوع القراءة التي يتطلبها هذا النص ، إنه البهو الذي ندلف من خلاله إلى النص [24] ، و دونه لا يمكننا الدخول إلى حجرة النص لغموضه وتشابكه، و لتتم عملية الولوج إلى هذه العمارة النصية، والتقرب من حجراتها، وملامسة اتجاهاتها وحركتها في ثنا النسيج النصي و تشظياته.

وقد جاء عنوان النص جملة منمقة مفخخة ذات سبك و حبك وغواية " الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي "، شغلت مكانا على ظهر الغلاف؛ فجاءت بين الصورة و التجنيس و طغى عليها اللون الأحمر ، و قد تكررت في الصفحة بعد الغلاف ، فجاءت بين اسم المؤلف و التجنيس .كما جاء طويلا نسبيا ، و الذي لا يشبهه في الطول إلا عنوان " العشق و الموت في الزمن الحراشي " و عنوان المجموعة القصصية " الشهداء يعودون هذا الأسبوع " ، و على ما يبدو أن بينه و بين عنوان الرواية تناص ظاهر ، و تجلى في كلمة " يعود ". كما شكل العنوان مدخلا ضروريا للنص؛ باعتباره تحديدا لاتجاه القراءة , و رسما لاحتمالات المعنى, و قد أراد الطاهر وطار أن يكون عنوان روايته تفسيريا, يجسد معنى الرواية و يختصر حكمتها لشدة التحامه بها، ما جعله نصا" قادرا على توجيه القارئ و اقتراح الدلالة الممكنة للرواية و مع حيوية عنوان الرواية"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" و مباشرته و اتصاله بجوهر النص، فإن الروائي يعمق من هذه الصلة(صلة الرواية بالعنوان) عن طريق صورة الغلاف و نص الإهداء.و منه نتساءل: لماذا الولي ؟ لماذا الطاهر ؟ لماذا إلى ؟ و و لماذا المقام ؟ ثم أخيرا لماذا الزكي؟

إن لفظة الولي مشحونة بدلالات الاختراق للسطح و العابر ؛ إنه علاقة فنية قبل أن يكون شخصية ذات ملامح و سمات و موقف تتميز بها داخل النص الروائي. و الولي في منظور المتصوفة هو العارف بالله و صفاته بحسب ما يمكن ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات و الشهوات [25] . و الولي هو من ولي أمرا .

و بإضافة صفة الطاهر لها و هو من عصمه الله من المخالفات و المعاصي ، فيمكن أن نجعل منها رمزا للسمو ، قد يكون في الأفكار ، في السلوك في الروح ؟ هكذا يمكن للطهارة أن تكون ، و باستدعاء وطار الولي المودع في الوعي الجماعي ، نجد أنفسنا حيارى نتساءل : هل كان الولي – بربطه بما في النص ـــ طاهرا ؟

أما صيغة " يعود " فتبقى العمل في حركة لولبية، إذ أن صيغة المضارعة التي جاء عليها الفعل تجعل الولي يعود مرة و اثنتين و ثلاثا و ربما أكثر، فهل سيصل (؟ !) . و قد تبع بحرف الجر " إلى" الذي يدل على الانتهاء ، و تحديد المكان المخصص للعودة و كأن الروائي أراد أن يجعل وليه يعرف هدفه فيصل إليه بسرعة و بأقل جهد ، و لكن ما يحدث، أو ما نجد في متن الرواية هو معاناة الولي من التيه و الضياع في الصحراء و الفيافي. أما "المقام الزكي" فالمقام – عند المتصوفة– هو المنزلة الروحية التي يمر بها السالك إلى الله، و الزكي هو الحلال الذي لا يستوخم عقباه"[26]. إذن هذا الولي الطاهر(؟) يعود إلى مقامه الزكي (؟)

هكذا كان العنوان الرئيس متاهة نصية، أحبولة و فخ ينصبه الروائي للقارئ يوهمه أن القضية سهلة، و أن عودة الولي الطاهر أكيدة، لدرجة أنه أول ما يقرأ العنوان يظن أن الولي عاد ، و ما على النص إلا إن يبين له طريقة هذه العودة ، و الخيرات التي ستحل بها. و لكن فعل القراءة في هذه الحالة

يكشف عكس الأمر؛ فالقارئ سيدرك أن هذه العودة هي عودة سيزيفية ، فالمقام الذي يعود إليه هذا الولي هو مقام لم يوجد بعد (؟) .هذا ما ستعلنه العناوين الفرعية في المتن الروائي:

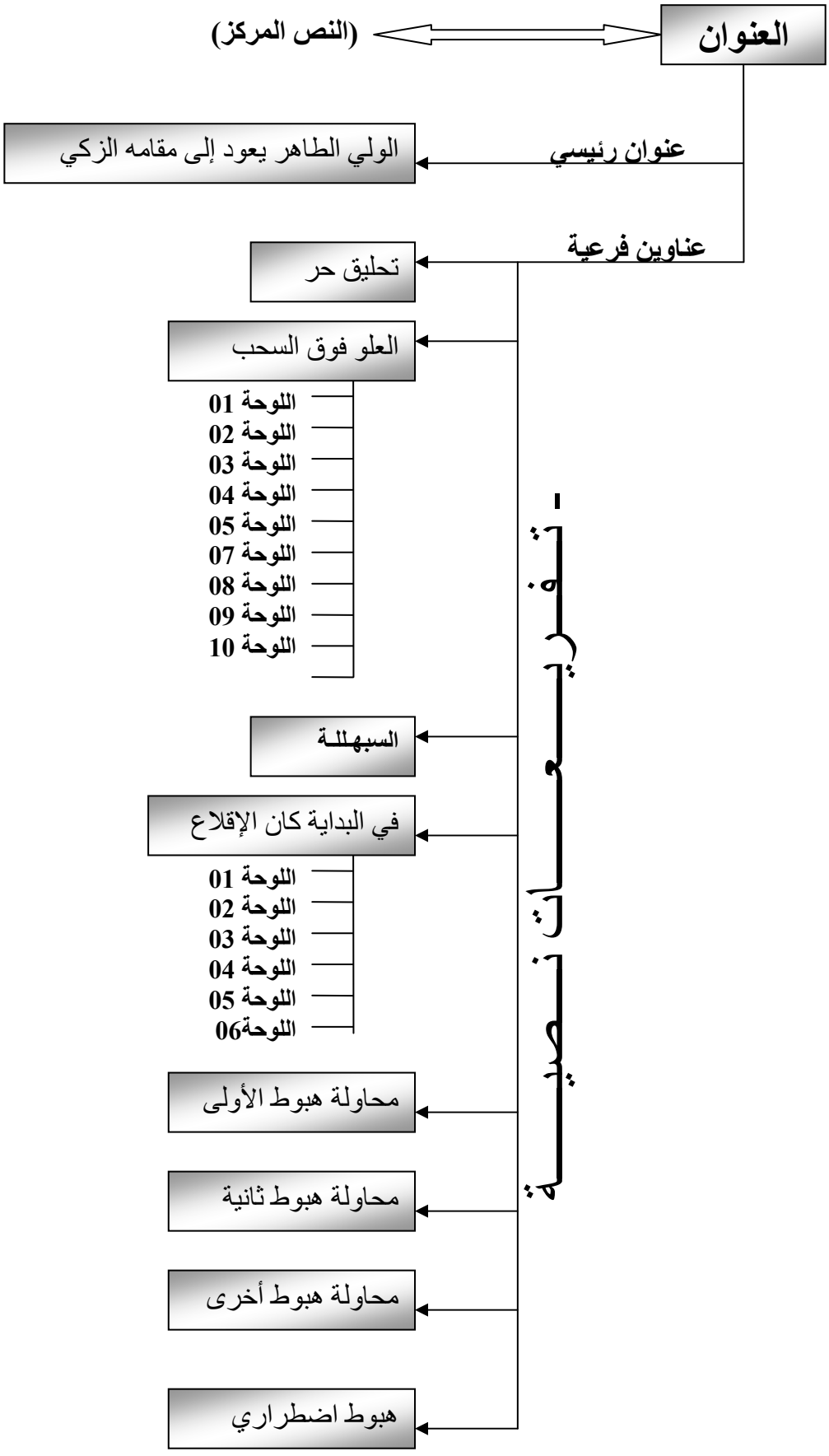
العنوان
(النص المركز)
عنوان رئيسي
الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي
عناوين فرعية
تحليق حر
العلو فوق السحب
اللوحة 01
اللوحة 02
اللوحة 03
اللوحة 04
اللوحة 05
اللوحة 07
اللوحة 08
اللوحة 09
اللوحة 10
السبهللة
في البداية كان الإقلاع
اللوحة 01
اللوحة 02
اللوحة 03
اللوحة 04
اللوحة 05
اللوحة06
محاولة هبوط الأولى
محاولة هبوط ثانية
محاولة هبوط أخرى
هبوط اضطراري
نافذة عائمة

ب- **العنوان كحقول دلالية فرعية :** إنها "مجموعة العلامات اللسانية, من كلمات و جمل و حتى نصوص, قد تظهر على رأس النص لتدل عليه و تنعيه, تشير لمحتـــواه الكلـــي, و لتجـــذب جمهـــور المستهدف"[27]، وهي العناوين التي من شأنها خلخلة التهيؤ الذي يضعه العنوان الرئيس ، أو على الأقل من شأنها خلق هامش من التلقي المغاير لتلقي الأولى[28]؛ فجاءت نصوصا شارحة رغم تركيزها, مـــا يؤكد عناية المؤلف بالنص الكلي و بالجمهور، في جملة من الإجراءات التي عملـــت علـــى تغليـــف وتشكيل و تأطير الرواية؛ فتحكمت في نصوصها الجزئية, بشكل يستهدف القارئ بالدرجة الأولى .

ففي البداية كان " تحليق حر " دلالية على الانطلاق و الإنعتاق من قيوده لا يريد البطل الوقوع فيها ، تحليق كاد يربط بين البداية و النهاية ، فتظهر العضباء و قد توقفت فوق التلة الرملية عند الزيتونة الفريدة من الفيء كله ، قبالة المقام الزكي " بحول الله و حمده ها نحن نرجع إلى أرضنا من جديد " [29] . و كأن الولي الطاهر قد عثر على المقام بعد غيبة و بحث طويلين في صورة ضبابية كـــ " السراب الذي يحسبه الظمآن ماء "[30] في هذا التحليق.

ليتلوه " العلو فوق السحاب" علو الشمس فيه ذاهلة لا تتم على أي توجه ، علو قد يكون حالة صوفية أو سفر صوفي ، فيه كان التوحد مع الزمان و المكان ، سفر جمع بين مشاهد متباعدة الأزمان و الأماكن، علو يكاد يعكس مرحلة سوداء تعيشها الجزائر. و المثير- فعلا في هذا العلو- إقصاء اللوحة السادسة "6" ــ حيث أننا لا نفهم لماذا هذا الإقصاء الذي جاء تحت هذا العنوان ، أو بالأحرى في هذه المرحلة ، لتذكر هذه اللوحة بعد ذلك.

و بعد هذا السفر الصوفي المتعب تأتي " السبهللة " و التي يقول عنها الولي الطاهر " حالة صوفية كاذبة ، إنها حالة تجعل الدجال يذهل عن نفسه و عن ربه ، فلا هو بنائم و لا هو باليقظ " [31] . و هي صفة للرجل غير محمود المجيء ، فكأن عودته غير محمودة ، و فيها سيكون الهول الكبير. أما " في البداية كان الإقلاع " فهو عنوان جاء يصور حالة الولي الطاهر ، و هو يبحث عن مقامه الزكي بعد فقد الذاكرة ، فقد أصبح في حالة اللاعقل أو اللاوعي بعد لحظة الغواية التي مارستها عليه " بلارة ابنة الملك تميم بن المعز زوجة الناصر بن علناس بن حماد، الذي سرت إليه في عسكر من المهدية حتى قلعة بني حماد تصحبني من الحلي و الجهاز مالا يحد ، أمهرني الناصر بأربعين ألف دينار ، أخذ منها أبي دينار واحد و أعاد إليه البقية . ابتنى لي قصرا منيفا سماه باسمي، لذا ما أن يقوم قصر في أي بر كان إلا و كنت سيدته الأولى و الأخيرة، أنزل من السماء و أتخذ موقعي.. قبلت عن طيب خاطر الزواج من الناصر" تربة العز " لا لكونه سلطانا قوي النفوذ أذل كل متمرد، و إنما لأقي قومي شر الحرب و ويلاتها ... "[32]

بهذا عرفت بلارة نفسها في متن الرواية ، و في هذه المرحلة بالذات ، مرحلة الإقلاع بعد حالة السبهللة التي سادت، مرحلة ذكرت فيها اللوحة السادسة(6) المقصاة في مرحلة العلو فوق السحاب ، إذن هو إقلاع قد يكون بداية البداية، إنه إقلاع بدأ في هذا ألفيف الواسع، من أين؟ و إلى أين؟ الله و

الولي الطاهر أعلم . و عقب هذا الإقلاع في هذا ألفيف، الشيء المفروض و المتوقع أن يكون لهذا الإقلاع مرحلة أو حالة هبوط، فهل يكون ذلك ؟

هذا ما صوره لنا الروائي في محاولات الهبوط الثلاث ، و التي كانت بمثابة إعادة لنصوص سابقة في متن الرواية نفسها اختارها الروائي بطريقة ذكية علها تسهم في إضاءة بعض الجوانب الغامضة من ناحية ، و للدلالة على استعصاء تواصل الولي الطاهر مع الواقع من ناحية أخرى لأن الصوت بلغ منتهاه و مبتغاة ، و بضرورة توقف حالة الذهول ...[33]

و بملاحظة بسيطة نجد " محاولة هبوط أولى " تكرار لما جاء في الصفحة الأولى من الرواية ، مما يعني أن نهاية أحداث الرواية ما هي إلا بدايتها المفترضة التي ستدفع القارئ إلى ملأ كل فراغ أحدثه الروائي أو صاحب النص ، و تختتم الرواية بعد محاولات الهبوط الثلاث بهبوط اضطراري هبوط ينفي عودة الولي الطاهر إلى المقام؛ و لعل في عدم إكمال الآية : "قد أفلح من تزكي " [34] ، من سورة الأعلى ، التي صلى بها الولي الطاهر في آخر صفحة من الرواية، دليل على عدم العثور على هذا المقام الزكي. كما نجد في هذا الهبوط استغلال ذكي لظاهرة الكسوف التي حدثت في يوم: الأربعاء 11أوت 1999 ، في منتصف النهار، إنه كسوف غير واضح أورده المؤلف ليعبر به عن الأمور غير الواضحة التي تحدث في الجزائر ، و بهذه تركت الأبواب مشرعة لنهايات مختلفة عديدة ، على الرغم من زوا ربها الضيقة و اتجاهاتها الكثيرة .

3 – **الإهـــــــــــــــــداء :**

و هو العتبة الثالثة للنص ، تحمل داخلها إشارة ذات دلالة توضيحية [35] ، حيث أن الإهـداء الذي تصدر الرواية هو في الحقيقة جزء منها؛ ذلك "أن القارئ قد يجد نفسه إزاء عنقود من الطـرق المفضية إلى النص أو حزمة من المفاتيح، التي تصلح كلها, ربما، و بفاعلية متفاوتـة لفـك مغـاليق [الرواية], لذلك يظل الإهداء"(36). كما في رواية الطاهر وطار ترجيحا لدلالـة الـنص الأساسـية و اختزالا للخيارات العديدة للقراءة، و استخلاص دلالات القول في الرواية, و يمثل ذلك اختيار لطريـق محدد و اهتداء إلى مفتاح بذاته. و الإهداء–عموما– هو تقدير من الكاتب و عرفان يحمله للآخـرين, سواء كانوا أشخاصا, أو مجموعات (واقعية أو اعتبارية), و هذا الاحتـرام يكـون إمـا فـي شـكل مطبوع(موجود أصلا في العمل/ الكتاب), و إما في شكل مكتوب يوقعه الكاتب بخط يده في النسـخة المهداة. و يفرق "جينيت" بين اهدائين؛ **واحد خاص:** يتوجه به الكاتب للأشخاص المقربين منه, يتسـم بالواقعية و المادية. وآخر **عـــام:** يتوجه به الكاتب للشخصيات المعنوية كالمؤسسات و الهيئـات و المنظمات و الرموز (كالحرية, السلم, و العدالة....)، وهو ما تجسد في إهداء روايتنا؛

فكان الإهداء لحسن مروة ــ و هو كاتب و ناقد لبناني قتل في الحرب الأهليةــ و لمحمـود أمـين العالم ، و كلاهما رمز من الرموز الثقافية و الفكرية العربية المعاصرة ، إنهما رمـزان شـيوعيان ، ربما لا نستطيع أن نفي القصدية في هذه العتبة حيث يمكننا القول أن وطار لا يزال حاملا هـواجس

الواقعية الاشتراكية ، إلا أنه في هذا النص يجسد شيوعيته بطريقة لولبية؛ فيشير الروائي بهذا الإهداء ــ لشخص ميت ، و شخص آخر لا يزال على قيد الحياة ــ إلى أن شمعة المثقف الشيوعي لا تنطفئ، يذهب واحد و يبقى آخر يحمل اللواء و يكمل النضال ، فرغم الموت تستمر الحياة ، و تبقى الاشتراكية تناضل ، لأنها صالحة للتطبيق في كل زمان و مكان، كما أنها البديل في عصر البدائل لـذلك المجـد الضائع. إنها عملاقة كالشخصين الذين تمثلت فيهما " حسين مروة" و " محمود أمـين العـالم" ، هـذا الأخير، الذي كان الدعاء لها من خلاله بطول العمر .

و الإهداء في شطره الثاني، جاء مستندا على فلسفتين، الأولى يونانية من خلال مثل يقول:" لا يمكـن أن نستحم بماء النهر الواحد مرتين"[37]، في حين الطاهر وطار بتقنية تناصية تخالفيه يقول" قد نتحايل على النهر، فنحصر ماءه، و إن كان في بركة و نستحم فيه مرتيـــــن"[38]، فكان التحويل لذلك الرأي في الفلسفة اليونانية بينما الفلسفة الثانية هي الفلسفة الهندية،والتي استند عليها من خلال رأي من أرائها يقول :" لا يمكن أن نستضيء بنور الشمعة الواحدة مرتين" وهو الـــرأي نفسه عند الروائي في الشطر الثاني من القول، و لعل الناص يربط ذلك مع عـــودة الولـــي الطاهر، إذ نجد أن حركة العودة هذه تصطدم بحقيقة هذين القولين، و قبلها قال وطار" اللي ولي على الجرة تعب" [39]، كما يمثلها المخطط التالي:

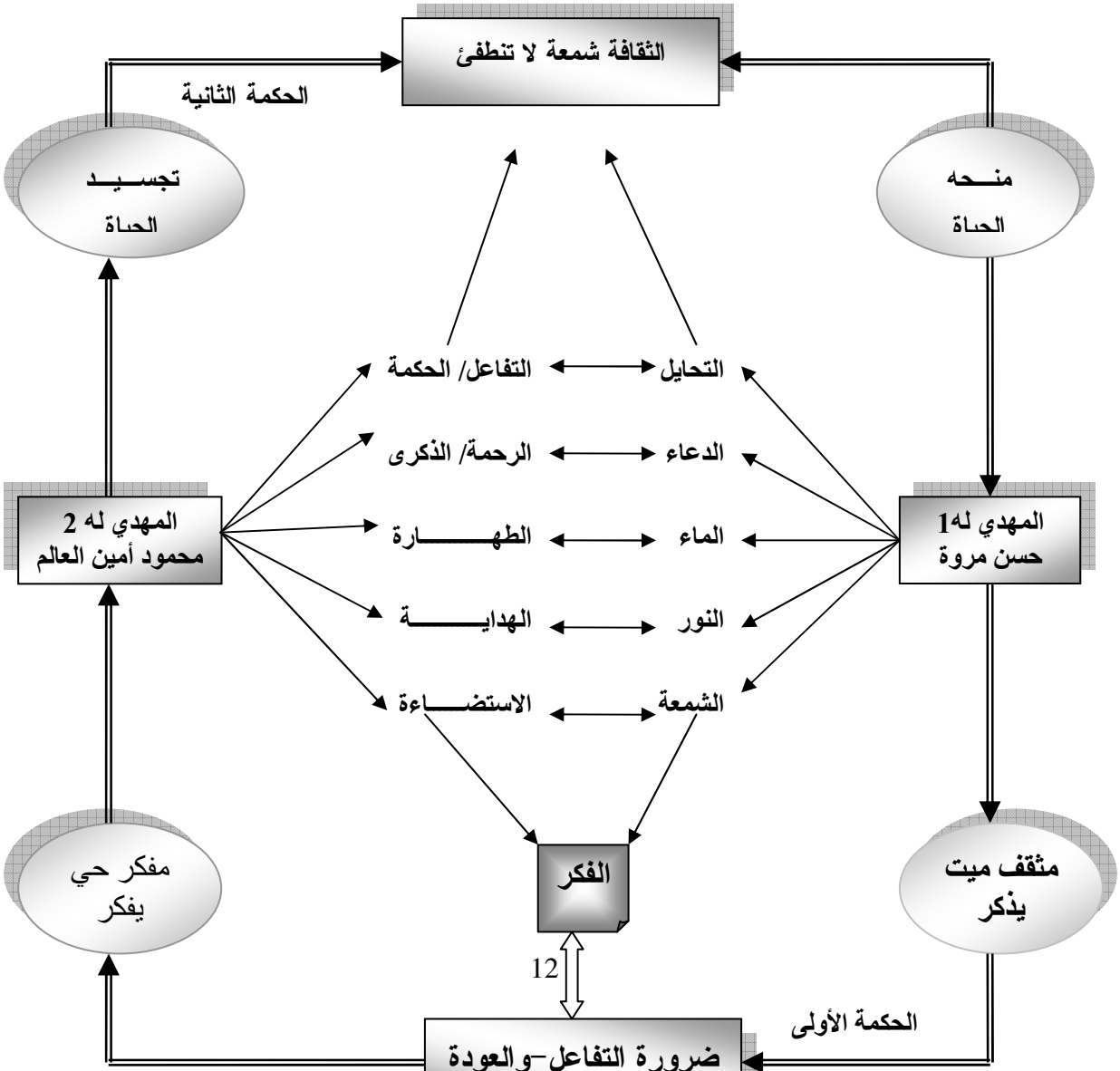

لقد حقق إهداء الرواية وظيفته الدلالية، بما يحمله من معنى للمهدي إليه, و العلاقات التي سينسجها من خلاله. ووظيفته التداولية، بما يحمل من معاني تنشط الحركية التواصلية بين الكاتب و جمهوره الخاص و العام, محققة قيمتها الاجتماعية و قصديتها النفعية في تفاعل كل من المهدي و المهدي إليه.

4 – المقدمة :

و هي إحدى عتبات النص التي تشد انتباهنا ، إنها قراءة يمارسها المؤلف على نصه ليوجه القارئ إلى إستراتيجيات الاستقبال لديه ، و يحدد مسارات تلقيه [40] ، و هي كلمة مهد فيها الروائي للقارئ دخول عالم الرواية الساحر، هي " كلمة لا بد منها " قالها وطار، و كأنه يخاف من وقوع متلقيه في مطبات عديدة ، فلجأ لهذا النص المصاحب ، و لعل ما يجسد خوفه هذا قوله في المقدمة : " إن القارئ الذي ليس له ثقافة تراثية عموما ، سيجد نفسه مضطرا إلى مراجعة بعض المفردات و الاصطلاحات كما قد يجد صعوبة في العثور على " رأس الخيط " [41] ، و بذلك يوضح وطار للقارئ ما يجب عليه فعله لفهم النص، لأن ما في الرواية من تجريد و سريالية و تاريخا نية يعود إلى صعوبة القضية و تشعبها، "وتكاد تكون المقدمة شرحا لروح النص الروائي, أو "استباقا له في صياغة معناه العام, وفضحا لشرارته الكامنة"(42).

. من هنا قام الروائي في هذه العتبة بتحليل ما اتكأ عليه في كتابة الرواية، باعتبارها نصا مثيرا لتساؤلات مستمرة، تتوالد بتجدد فعل القراءة، الذي يسعى دوما لتحريك تراكمات معرفية في ذهن الذات القارئة، في لحظات الكشف والرؤيا،التي تنتابها، فالقراءة خلق جديد للنص، تأويل توليدي من أجل خلق التأليف الثاني، في عالم المجهول، و المقدمة باعتبارها استهلالا تأتي مؤشرا لفهم السياق الذي ينخرط فيه الكتاب, ولا يمكن للقارئ فهمه بدونه, فهو يضعه في حالة انتظار, لأن الكتاب يعد جزء من مجموعة كتب لا بد أن تفهم في سياقها العام.لهذا يضع الكاتب تنبيهات تؤشر على السياق, خاصة في الكتب ذات الأجزاء و المجموعات. تسمى في مثل هذه السياقات "التصريح بالقصد"(déclaration d'intention)، فمن بين الوظائف المهمة للاستهلال الأصلي تقديمه تأويلا للنص من طرف الكاتب، الذي يعلن فيه عن قصده, كأن يقول "هذا ما أريد فعله/قصده(في الكتاب).

ويؤكد هذا البيان (النص الموازي) مفتخرا لكونه كاتبا سياسيا، فيقول : "ربما من هنا، تأتي ضرورة أن يضع المبدع كلاما غير إبداعي لعمله يسميه كلمة المؤلف أو مقدمة أو ما يشبه ذلك. و أنا شخصيا لا أهدف إلى الدفاع عن نفسي أو عن هذا العمل ، أو ذاك من أعمالي، فأنا كاتب تشكل على مدى ما يقرب نصف قرن" [43].

هكذا كانت العتبة الأخيرة ، تقريرا نقديا على النص بقلم المؤلف ذاته ، و مفتاحا للقراءة الممكنة ، رغم أن هذا البيان القانوني ربما كان ضارا بالرواية من الوجهة الفنية؛ إذ يسوق

القارئ ــ بالضرورة ــ إلى التوقف عند المستوى الحر للمادة الأولية، فلا تجعله يسترد وعيه أثناء عملية القراءة و التأويل، كن في الحقيقة، أن القارئ واقع في ذلك أثناء قراءة النص من تلقاء نفسه نظرا لخلفيته المعرفية، فالنص المصاحب ليس عائقا لعملية التلقي بقدر ما يهيأ لها ، كما هي مقدمة هذه الرواية ، لأنه إذ كان الروائي كتب بذاكرته، و القارئ يقرأ بذاكرته ، فإن للنص أيضا ذاكرة لا يستطيع الفكاك منها مهما حاول .

و الاستهلال(instance préfacielle)عند "جينيت" هو ذلك المصطلح الأكثر تداولا و استعمال في اللغة الفرنسية و اللغات عموما, باعتباره كل فضاء من النص الافتتاحي/liminaire (بدائيا/préliminaire كان , أو ختاميا/post liminaire), و الذي يعني بإنتاج خطاب بخصوص النص, لاحقا به أو سابقا له, لهذا يكون الاستهلال ألبعدي أو الخاتمة (postface) مؤكدة لحقيقة الاستهلال. و من نصوص الاستهلال دورانا و استعمالا نجد:

المقدمة/المدخل(introduction), التمهيد(avant-propos) ألديباجي(prologue), توطئة(avis),حاشية(note),خلاصة/إعلان للكتاب(notice), عرض/تقديم(présentation) , قبل (الـ) بدء القول(aunant-dire),مطلع(prélude), خطاب بدئي (préliminaire discours),فاتحة/ديباجة(préambule), خطبة الكتاب(exorde).

و هناك ما يعرف بالاستهلال ألبعدي(postface) و الذي يتمثل غالبا في الخاتمة, و يضم أيضا كل من الملاحق(annexe). و الذيول (après-propos), أما بعد/بعد القول(après-dire), الكتابة البعدية/ما بعد الكتابة(post-scriptum) و لكل هذه الاستهلالات و التذييلات خصائصها ووظائفها, خاصة الكتب ذات الطابع التعليمي, و التي تمتاز بوظيفتها الأكثر برتوكولية, و الأكثر ظرفية بارتباطها بما يقوله النص

"فبسؤال الكيفية يستطيع الاستهلال الأصلي أخبار القارئ عن أصل الكتاب, و ظروف تأليفه و تحريره, و عن مراحل تكونه"(44).

و آخر القول، أن فاعلية مصطلح مثل المناص على هذه الشاكلة، التي برزت بها في نص رواية الولي الطاهر، بل حتى في أي نص كان، ورغم صعوبة اجتيازه لاقتحام الفضاء النصي، فيؤكد هذا حقيقة التفاعل النصي الحاصل بين المصطلحين، وإلا ما كان لجيرارد جينيت أن يقول: "احذروا من المناص"؛ لأن الخطاب على المناص، وفهم والتفاعل معه وتأويله و بلورة علاقاته البينية/الداخلية والخارجية، بدايته المناص كبداية إذا كان قد وضع في منتهى الدقة والذكاء.

الهـــــوامـــــــــــش :

1 – الطاهر وطار ، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ، منشورات التبيين الجاحظية ، سلسلة الإبداع الأدبي ، ط 1 ، 1999 ، الجزائر .

2-vior :Larousse ;(dictionnairedefrancais)France ;1997 ;p301-302

3-Gerard Genette ,seuils , ed seuil,col poétique paris ,1987 , p 7.

4 – محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (بنايته و أبدالاتها)1–التقليدية، دار توبقال للنشر،لدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2001 ، ص 188 .

5 – جيرار جنيت ، مدخل إلى جامع النص، ترجمة عبد الرحمان أيوب، دار توبقال ، المغرب ، ط 2 ، 1986 ،ص 91 .

6 – حسن محمد حماد ، تداخل النصوص في الرواية العربية (بحث في نماذج مختارة) ، دراسات أدبية ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص 56 .وينظر: محمد بنيس، المرجع نفسه،ج1،ص.76

7–ينظر:حسن محمد حماد، تداخل النصوص، ص 146–147

و vior :Genette ibid،. p11-12.

. 8- G.Genette; Ibid;P152.

9 – حسن محمد حماد ، تداخل النصوص ، ص 148 .

10– مراد عبد الرحمان مبروك، جيويوتيكا النص الأدبي–تضاريس الفضاء الروائي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط6، 2002،ص124.

11–حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب،ط2000،3،ص.56

12– قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص .22

13-حميد لحمداني، المرجع نفسه،.61

14-عبد الفتاح نافع، جماليات اللون في شعر ابن المعتزة، مجلة التواصل، العدد الصادر في04 جوان 1999، ص .125

15- عـيـاش يحيـاوي، حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين، الجاحظية، الجزائر، العدد 15،2000،ص85 .

16- الطاهر وطار ، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ، ص 25.

17-جيرار جينيت، المرجع نفسه، ص.97

18- الرواية ، ص 7 .

19 – الرواية ، ص 9 .

20 – حسن محمد حماد ، المرجع السابق ، ص 111 .

21 – المرجع نفسه ، ص 11 – 113 .

22 – جيرار جينيت، المرجع نفسه، ص.97

23-جمـــــيل حمداوي، السميوطيقا و العنونة ، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني ، العدد الثالث ، الكويت، ص 108 .

24 – علـــى جعفـــر العـــلاق ، الشعر و التلقي ، دار الشرق ، عمان ، ط 1 ، 1997 ، ص 173 .

25 — الجرجاني (علي بن محمد) ، التعريفات ، دار الكتاب اللبناني المصري ، بيروت ، القاهرة ، ط 1 ، 1991 ، ص 265 .

26- أحمد عبد الدايم(ت 756 ه)، عمدة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1996، ج4، ص .57

27 – حسن محمد حماد ، المرجع السابق ، ص 61 .

28 – الرواية ، ص 11 .

29 – الرواية ، ص 13 .

30 – الرواية ، ص 81 .

31 – الرواية ، ص 91 .

32 – الرواية ، ص 18 .

33 – سورة الأعلى الآية 14 .

34 – حسن محمد حماد ، المرجع السابق ، ص 64 .

35- المرجع نفسه ، ص .18

36 –العلاق، الشعر والتلقي، ص.86

37 – الرواية ، ص .3

38 – الطاهر وطار ، الشمعة و الدهاليز ، الجاحظية ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1955 ، ص .57

39 – حسن محمد حماد ، المرجع السابق ، ص 150 .

40 — الرواية ، ص 10 .

41 – الرواية ، ص .7

42–علي العلاق، المرجع نفسه، ص.86

43–الرواية، ص08.

44–جيرار جينيت، جامع النص،ص95–96.